بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة باتنة1 الحاج لخضر
كلية العلوم الإسلامية الطاهر حليس
قسم التعليم الأساسي مخبر بحث العلوم الإسلامية في الجزائر

الملتقى الوطني: النهضة الحضارية والثقافة السننية
الثلاثاء 12 نوفمبر 2024م

محورية الثقافة السننية في النهضة الحضارية وموقعها في منظور السننية الشاملة

The Centrality of Sunaniyah Culture in Civilizational Renaissance and Its Position within the Comprehensive Sunaniyah Perspective

بيانات الأستاذ
الاسم واللقب: عبدالله لعريبي
الدرجة العلمية: دكتوراه في العلوم
التخصص: هندسة مدنية
جامعة: المدرسة الوطنية المتعددة التخصصات بالحراش
كلية: دائرة الهندسة المدنية
قسم: الهندسة المدنية
البريد الإلكتروني: dr.abdallah.laribi@gmail.com
رقم الهاتف: 213 666 642 510+

ملخص المداخلة:

شغل سؤال النهضة المفكرين والمصلحين المهمومين بحال الأمة الإسلامية وأزمتها الحضارية، وكيف السبيل للخروج منها، ردحا من الزمن. وتنوعت نظرتهم لها بتنوع زوايا النظر إلى أصل المشكلة، وتبعا لذلك تباينت مناهجهم، فمنهم من عالجها من خلال مقاربات جزئية، ومنهم من سلك سبيل المقاربات التكاملية، باعتبارها الأنسب والأقدر على توصيف الأزمة الحضارية الإسلامية المتعددة الأبعاد، وتقديم رؤية متكاملة ومتوازنة للنهضة الحضارية المنشودة.

تهدف هذه الورقة البحثية إلى بيان محورية الثقافة السننية في النهضة الحضارية عامة، وبيان موقعها وأهميتها في منظومتي سنن الوعي الاستخلافي الشامل، وسنن الوعي التسخيري الشامل، لمنظور السننية الشاملة الذي يُعد من أشمل وأرقى المنظورات السننية التي عرفها الفكر الإسلامي المعاصر.

الكلمات المفتاحية: الثقافة السننية، النهضة الحضارية، السننية الشاملة، سنن الاستخلاف، سنن التسخير.

Abstract of the intervention:

For generations, the question of civilizational renaissance has preoccupied thinkers and reformers deeply concerned with the state of the Muslim Ummah and its civilizational crisis, as well as the pathways to overcome it. Their views on the issue have varied, shaped by different perspectives on the root of the problem. As a result, their approaches have diverged: some addressed the issue through partial frameworks, while others embraced integrative perspectives, recognizing these as more suitable and effective in diagnosing the multidimensional civilizational crisis of the Muslim Ummah and in offering a comprehensive, balanced vision for the desired renaissance.

This paper seeks to highlight the pivotal role of the Sunaniyah culture in fostering civilizational renaissance and to explore its importance within the frameworks of comprehensive Istikhlaaf consciousness and comprehensive Taskheer consciousness. These frameworks form part of a broader and more refined Sunaniyah perspective, recognized as one of the most comprehensive approaches in modern Muslim thought.

Keywords: Sunaniyah culture, civilizational renaissance, comprehensive Sunniyah perspective, laws of Istikhlaaf, laws of Taskheer.

مقدمة

تنطلق هذه الورقة البحثية من التساؤل الكبير الذي ما زال يؤرق المفكرين والمصلحين المهمومين بالأزمة الحضارية، التي تعاني منها الأمة الإسلامية: لماذا لم تستطع الأمة الخروج من أزمتها، والدخول في دورة حضارية جديدة، رغم الجهود المبذولة المعتبرة على مدار أزيد من قرنين من الزمن؟

وتحاول هذه الدراسة الإجابة عن هذا التساؤل الكبير، من منظور السننية الشاملة، باعتباره أفضل المقاربات التكاملية القادرة على توصيف الأزمة الحضارية الإسلامية المتعددة الأبعاد، وتقديم رؤية متكاملة ومتوازنة للنهضة الحضارية المنشودة.

في البداية، تناولتُ سؤال النهضة الذي تضمن الحديث عن الأزمة الحضارية المزمنة، وبيان أسبابها ومظاهرها، وعرضتُ بعض المقاربات الجزئية والتكاملية الرامية إلى ايجاد مخرج منها، وبينتُ كذلك نقائص المقاربات الجزئية ومحاسن المقاربات التكاملية المؤسسة للنهضة الحضارية المنشودة.

كما عرّفتُ الثقافة السننية لدى بعض الدارسين، وقدّمت تعريفي لها، وبيّنتُ أهمية ومحورية الثقافة السننية في النهضة الحضارية المتوازنة.

ثم توقّفتُ عند مقاربة مالك بن نبي التكاملية، ذات المنهج المركب بمقاربات متعددة التخصصات التي تميز بها، وكيف كان مدرسة في الفكر الإسلامي المعاصر.

وبينتُ كيف سار الكثير من الدارسين والباحثين عن المخرج من هذه الأزمة الحضارية، على نهج هذه المدرسة الحضارية في اتجاهها والسننية في منهجها.

ومن بين هؤلاء الدارسين والباحثين، ركزت على المفكر الطيب برغوث، صاحب منظور السننية الشاملة، بالتعريف بمنظوره، وبيان منظوماته الكلية الأربعة التي يقوم عليها، وبيان موقع وأهمية الثقافة السننية في منظومة سنن الوعي الاستخلافي الشامل من خلال سنن الابتلاء والمدافعة والمداولة والتجديد، وكذلك في منظومة سنن الوعي التسخيري الشامل من خلال سنن الأفاق والأنفس والهداية والتأييد.

وختمتُ الورقة البحثية بذكر أهم النتائج التي توصّلتْ إليها الدراسة، مشفوعة بتوصيتين أساسيتين.

أولا -سؤال النهضة

يتضمن هذا السؤال الحديث عن الأزمة الحضارية التي تعاني منها الأمة الإسلامية، وبيان أسبابها ومظاهرها، وعرض بعض المقاربات الكبرى، الجزئية والتكاملية، من أجل النهوض الحضاري المنشود.

1. الأزمة الحضارية الإسلامية

أخبرنا الصادق المصدوق ﷺ بأن الأمة الإسلامية سيأتي عليها زمان تُصاب فيه بالوهن، وبين لنا مظاهره وأسبابه الجوهرية، كما جاء في الحديث: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، فقال قائل: ومِن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا، وكراهية الموت.**» (سنن أبي داود، برقم 3745).

يعتبر مالك بن نبي هذا الحديث "ضربا من التنبؤ والاستحضار، استحضار صورة العالم الإسلامي بعد أن تتمزق فيه شبكة علاقاته الاجتماعية، أي عندما لا يعود مجتمعا، بل مجرد تجمعات لا هدف لها، كغثاء السيل،"[1]

ويرى الطيب برغوث، بعد تأمل في أسباب هذا الوهن الحضاري المزمن على ضوء المنطق القرآني في فلسفة التاريخ والحضارة، "ان أساس هذا البلاء وهذا الوهن الحضاري المشل والمقعد، هو ضعف الوعي السنني التكاملي للنخب الفكرية والسياسية في العالم الإسلامي، مع أن القرآن تمحور اهتمامه حول تأسيس الوعي بسلطة سنن الله في **الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد** من ناحية، وبسلطة سننه سبحانه في **الآفاق والأنفس والهداية والتأييد**، على المصير البشري بشكل حاسم ودائم من ناحية أخرى."[2]

إن هذا الوهن الحضاري أو هذه الأزمة الحضارية المزمنة، جعلت الكثير من المفكرين والمصلحين، على مدار أزيد من مائتي سنة، يعكفون على دراسة أسبابها والبحث عن حلولها.

---

[1] ابن نبي مالك، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الوعي للنشر والتوزيع، رويبة، الجزائر، ط1، 1434هـ/2013م.، ص 29.

[2] برغوث الطيب، مقدمة في الأزمة الحضارية والثقافة السننية، دار قرطبة للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر، ط1، 1425هـ/2004م، ص 4.

ومن هؤلاء، نذكر على سبيل المثال لا الحصر: جمال الدين الأفغاني (1838-1897م)، محمد عبده (1849-1905م)، محمد رشيد رضا (1865-1935م)، شكيب أرسلان (1869-1946م)، محمد إقبال (1877-1938م)، عبد الحميد بن باديس (1889-1940م)، أبو الأعلى المودودي (1903-1979م)، مالك بن نبي (1905-1973م)، حسن البنا (1906-1949م)، جودت سعيد (1931-2022م)، حسن سيد دسوقي (1937م -)، عماد الدين خليل (1941م -)، الطيب برغوث (1951م-) وجاسم سلطان (1953م-).

وإزاء هذه الأزمة الحضارية، نجد من سلك المقاربة الجزئية في النظر إلى أسبابها والبحث عن حلولها، ونجد كذلك من سار على نهج المقاربة التكاملية، باعتبارها الأنسب والأشمل في علاجها. وسنكتفي بتسليط الضوء على نموذجين من كل مقاربة.

ونقصد بالمقاربة الجزئية: المقاربة القائمة على فهم وتفسير الظواهر الثقافية والاجتماعية والحضارية، بالاعتماد والاكتفاء على بعض العوامل أو السنن الجزئية، الناظمة لتلك الظواهر. أما المقاربة التكاملية: فهي المقاربة القائمة على فهم وتفسير الظواهر الثقافية والاجتماعية والحضارية، بالاعتماد على تكامل كل العوامل أو السنن الناظمة لتلك الظواهر.

2. المقاربات الجزئية

1.2. مقاربة جمال الدين الأفغاني

كانت الأمة الإسلامية، في القرن التاسع عشر، تعيش في سبات عميق وظلام دامس، تعاني من قهر الاستعمار وظلم الاستبداد، متفرقة الصف والكلمة، ومتأخرة عن ركب الأمم المتحضرة.

و"في هدأة الليل وفي سبات الأمة الإسلامية العميق، انبعث من بلاد الأفغان صوت ينادي بفجر جديد، صوت ينادي: حيّ على الفلاح! فكان رجعه في كل مكان، إنّه صوت (جمال الدين الأفغاني) موقظ هذه الأمة إلى نهضة جديدة ويوم جديد."[3]

وُلد جمال الدين الأفغاني، سنة 1838م، ببلدة (أسعد آباد) ببلاد الأفغان، "في أسرة ذات نفوذ سياسي وإداري في مقاطعتها"[4]، وتلقى تكوينه العلمي في (كابل) بأفغانستان، ثم في (قزوين) بإيران، وفي (النجف) بالعراق، وفي (كلكتا) بالهند. وكان يجيد اللغة العربية، والفارسية، والأفغانية، والتركية، والفرنسية، وله إلمام بالإنجليزية، والروسية! [5]

ولما تدخل الاستعمار الإنجليزي في شؤون أفغانستان، مناصرا الأمير (دوست محمد خان) ضد الأمير (محمد أعظم خان)، "ألقى جمال الدين بثقله في العمل السياسي والوطني، مناصرا حكومة الأمير الوطني محمد أعظم خان،

---

[3] ابن نبي مالك، شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الوعي للنشر والتوزيع، رويبة، الجزائر، ط1، 1434هـ/2013م.، ص23.

[4] عمارة محمد، شخصيات لها تاريخ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، ط 1، 1429 هـ/2008 م.، ص171.

[5] عمارة محمد، شخصيات لها تاريخ، ص 172-173.

ومشاركا في القتال الذي دار ضد الإنجليز سنة 1862م، وارتقى في مناصب الحكومة الوطنية حتى أصبح الوزير الأول (رئيس الوزراء)!"[6]

"فلما دارت الدائرة على الأمير الوطني (محمد أعظم خان)، وهُزم سنة 1868م .. عرف جمال الدين طريقه إلى الترحال من جديد .. لكن ترحاله، منذ ذلك التاريخ وحتى وفاته، كان في سبيل إيقاظ المسلمين، ومحاربة الاستعمار الأوروبي، والإنجليزي منه على وجه الخصوص .. فلما خرج من أفغانستان إلى الهند .. ثم مصر .. فالآستانة .. فالحجاز .. فالعراق .. فإيران .. فروسيا .. فلندن، وباريس .. داعيا إلى الإحياء والتجديد للفكر الإسلامي، وإلى إيقاظ الأمة الإسلامية من سباتها، وفك قيود الجمود والتقليد، والإقلاع عن التخلف الموروث إلى النهوض الإسلامي، لمواجهة الاستعمار الزاحف على ديار الإسلام." [7]

"لقد أدرك جمال الدين الافغاني بصادق فطنته، ما أصاب مجتمعه من عفونة وفساد، فاعتقد أنه بدلا من أن ينصرف إلى دراسة العوامل الداخلية التي أدت إلى هذا الوضع، يستطيع أن يقضي عليه، بالقضاء على ما يحيط به من نظم وقوانين."[8]

"وكان هدفه الأول: أن يقوّض دعائم نظم الحكم الموجودة آنذاك، كما يعيد بناء التنظيم السياسي في العالم الإسلامي على أساس (الأخوة الإسلامية) التي تمزقت في (صفين)، وبددتها النظم الاستعمارية نهائيا، وكان هدفه الثاني: أن يكافح (المذهب الطبيعي) أو (المذهب المادي) الذي يعتقد أنه كامن في تعليم (أحمد خان) التي كان ينشرها في جامعة (عليكرة)، وأنه راجع إلى التأثير الخفي لأفكار الغرب."[9]

ومن أبرز إنجازاته الفكرية والسياسية، في الفترة التي قضاها في مصر (1871-1879م)، ما يلي:

- ربى نخبة من العقول التي جددت فكر الإسلام وحياة المسلمين، وفي مقدمتهم الإمام محمد عبده
- نشأت على يديه مدرسة في الصحافة الأهلية الحرة: صحف (مصر)، و(التجارة)، و(مرآة الشرق) .
- بروز تيار شعبي لمعارضة الاستبداد الداخلي، والثورة على النفوذ الأجنبي بكل أشكاله.
- ظهرت على يديه طلائع التنظيمات السياسية والإصلاحية (الحزب الوطني الحر).

وفي باريس، أصدر مع تلميذه ورفيق دربه الشيخ محمد عبده مجلة (العروة الوثقى)، لتعبر عن فكر وسياسة التنظيم السري الذي أقامه الأفغاني، لمواجهة الاستعمار الإنجليزي وإنهاض المسلمين.

وكان هذا التنظيم ومجلته أهم مدارس الوطنية الإسلامية والبعث الحضاري الإسلامي، التي تربى فيها وتعلم منها واستضاء بمناهجها دعاه اليقظة والتجديد والإصلاح والثورة على امتداد العالم الإسلامي.[10]

---

[6] المرجع نفسه، ص 173.

[7] المرجع نفسه، ص 173-174.

[8] ابن نبي مالك، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور، دار الوعي للنشر والتوزيع، رويبة، الجزائر، ط1، 1434هـ/2013م.، ص51-52.

[9] ابن نبي مالك، وجهة العالم الإسلامي، ص50.

[10] عمارة محمد، شخصيات لها تاريخ، ص 174-176م-بتصرف.

ويقول أعرف الناس به وأقربهم إليه الإمام محمد عبده: "وكان مقصده السياسي، مدة حياته إنهاض دولة إسلامية من ضعفها، حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة، والدولة بالدول القوية، فيعود للإسلام شأنه، وللدين الحنيفي مجده."[11]

إن المقاربة التي اعتمدها جمال الدين الأفغاني، القائمة أساسا على النضال السياسي، من أجل النهوض بالمسلمين، على أهميتها هي مقاربة جزئية، ضرورية لا بد منها، لكنها غير كافية، لأن النضال السياسي لا يكفي لوحده للنهوض بالعالم الإسلامي الذي كان يعاني من أزمة متعددة الأبعاد والمجالات،

ومع ذلك يبقى السيد جمال الدين الأفغاني "موقظ الشرق، وفيلسوف الإسلام، ورائد تيار الجماعة الإسلامية، وأبرز قادة الحركة الإصلاحية الإسلامية، ومن طلائع المجددين والمجتهدين في الفكر الإسلامي، في عصرنا الحديث."[12]

2.2. مقاربة محمد عبده

وُلد محمد عبده بقرية (محل نصر) بمصر، وتخرج من جامع الأزهر سنة 1294 هـ/ 1877 م، وعمل مدرسا في عدة مدارس، وكتب في الصحافة، واشتغل بالسياسة مع أستاذه جمال الدين الأفغاني، وعرف السجن والمنفى، واشتغل بالقضاء والافتاء، وجدد علم الكلام ومناهج التفسير.

تحول مجرى حياة الشيخ محمد عبده لمّا "تعرّف سنة 1388 هـ/ 1871 م على جمال الدين الأفغاني وتتلمذ على يديه، ولازم حلقات درسه، حتى غدا أصدق أصدقائه، وأبرز خلفائه في حركته الإصلاحية وتيار الجامعة الإسلامية."[13]

ومن منفاه ببيروت، الذي دام ست سنوات، "لحق بالأفغاني في باريس حيث انخرط في العمل السياسي، رئيسا لتحرير مجلة (العروة الوثقى)، ونائبا للأفغاني في رئاسة التنظيم الذي تنطق باسمه هذه المجلة (جمعية العروة الوثقى) السرية، وبهذه الصفة تنقل سرا في كثير من البلاد راعيا ومتابعا (عقود التنظيم)، أي خلاياه."[14]

لكن لما "تطرق اليأس من العمل السياسي المباشر إلى نفس محمد عبده، وعاودته الرغبة في الإصلاح بمناهج التربية والتعليم والتجديد الفكري وإصلاح مناهج التفكير لدى المسلمين، فارق أستاذه، وعاد إلى بيروت معلما بالمدرسة السلطانية، ومفسرا للقرآن بالمسجد العمري، ومؤلفا، ومحققا لكتب التراث."[15]

ومن أبرز أعماله الفكرية والتربوية والتعليمية، نذكر ما يلي:

- شرح لطلابه مقدمة ابن خلدون، وعلم الاجتماع والعمران.
- شارك في تأسيس (الجمعية الخيرية الإسلامية) و(جمعية إحياء الكتب العربية).
- خاض معارك فكرية كبرى، دفاعا عن الإسلام وحضارته، مع (جابرييل هانوتو) و(فرح أنطوان).
- جدد علم الكلام الإسلامي من خلال كتابه (رسالة التوحيد).

---

[11] المرجع نفسه، ص188.

[12] عمارة محمد، شخصيات لها تاريخ، ص171.

[13] المرجع نفسه، ص188.

[14] عمارة محمد، شخصيات لها تاريخ، ص190.

[15] المرجع نفسه، ص190.

- جدد منهج التفسير، وجعله عاملا لنهضة المسلمين وتحريرهم من الجمود والتخلف والتقليد الأعمى.
- بلّغ دعوته في التجديد والإصلاح، من خلال مجلة (المنار)، إلى كل أرجاء العالم الإسلامي.

و"إلى جانب المشروع الفكري، ركز في الميدان العملي، على إصلاح المؤسسات الثلاث: التي تقوم على صياغة العقل والوجدان الإسلامي: الأزهر .. والمساجد .. والمحاكم الشرعية .. ولقد حقق في هذا الميدان نجاحات لم تبلغ الحد الذي كان يريد ؟!"[16]

وبعد تجربته السياسية مع أستاذه جمال الدين، أدرك محمد عبده "حقيقة المأساة الإسلامية، فوجد أنه من الضروري النظر إليها بوصفها مشكلة اجتماعية."

و"كان الشيخ عبده يعلم علم اليقين، أنه لكي يتحقق الإصلاح، يجب أن يبدأ خطوته الأولى من (الفرد)"[17]، فظن أنه "من الضروري إصلاح (علم الكلام) بوضع فلسفة، جديدة، حتى يمكن تغيير النفس."[18]

وهنا يلاحظ مالك بن نبي أن "علم الكلام لا يتصل في الواقع بمشكلة النفس، إلا في ميدان العقيدة والمبدأ، والمسلم حتى مسلم ما بعد الموحدين، لم يتخل مطلقا عن عقيدته، فلقد ظل مؤمنا [...]، ولكن عقيدته تجردت من فاعليتها [...]، وعليه فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية، وتأثيرها الاجتماعي."[19]

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الملاحظة لم تمنع مالك بن نبي من الاعتراف بأن "جزءا كبيرا مما حققه العالم الإسلامي [...]، راجع إلى مجهود الشيخ عبده ومدرسته."[20]

إن تحول الإمام محمد عبده، عن قناعة، من العمل السياسي إلى إصلاح العقيدة بالوعظ، يؤكد لنا بأن مقاربة جمال الدين السياسية مقاربة جزئية، لا تكفي لوحدها، رغم أهميتها، للنهوض بالعالم الإسلامي.

ومقاربة محمد عبده، على أهميتها كذلك، هي الأخرى مقاربة جزئية، لكنها بنظرة صاحبها إلى أزمة العالم الإسلامي من زاوية أخرى، تؤشر إلى تحول منهجي لدى قادة الإصلاح، وتمهد للمقاربة التكاملية.

والمقاربة التكاملية هي أفضل طريق للنهوض بالعالم الإسلامي، لذلك يرى مالك بن نبي "أن المدرسة الإصلاحية لو أنها استطاعت أن تقوم بتركيب أفكارها، وتجميع عناصرها، لتوحد ما بين الأفكار الأصول، التي ذهب إليها الشيخ محمد عبده، وبين الآراء السياسية والاجتماعية التي نادى بها جمال الدين، الأمر الذي كان يؤدي حتما إلى طريق أفضل من مجرد إصلاح مبادئ العقيدة."[21]

---

[16] المرجع نفسه، ص192.
[17] ابن نبي مالك، وجهة العالم الإسلامي، ص53.
[18] المرجع نفسه، ص53.
[19] المرجع نفسه، ص53-54.
[20] ابن نبي مالك، وجهة العالم الإسلامي، ص55.
[21] المرجع نفسه، ص54-55.

3. المقاربات التكاملية

1.3. مقاربة عبد الحميد بن باديس

أشاد الدكتور مصطفى شريف[22] في مقدمته لكتاب (ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير)، بالمؤلِّف الذي "نقل لنا فهمه لسلوك وفكر ابن باديس الذي يرتكز على نظرية الوسطية في الإسلام، والتي قاوم بها عدوّين في آن واحد.
أولا: الجهل وضعف الثقافة الدينية الصحيحة.
ثانيا: الاستعمار الذي حاول مسخ الهوية الجزائرية ."[23]

ما كان لرائد النهضة الجزائرية العلامة الإمام عبد الحميد بن باديس (1889– 1940م)، أن يقوم هو وصحبه الكرام، بهذه الأعمال العظيمة، التي مهدت الطريق لثورة التحرير المباركة، لول اعتماده على المقاربة التكاملية بين التربية والتعليم والصحافة والإصلاح والعمل الجمعوي والسياسة، وأخذه بالسنن الإلهية، وتعامله معها بوعي وبصيرة.

"اهتم العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس بالسنن الإلهية، واعتبرها من أهمَّ سُبل الهداية القرآنية للإنسان المسلم. فبناء الدول وتربية الأمم والنهوض بها، يخضع لقوانين وسنن ونواميس، تتحكَّم في مسيرة الأفراد والشعوب والأمم والدول."[24]

ومن تلك السنن الإلهية، التي أخذ بها، نذكر على وجه الخصوص:

- **سنة تغيير النفوس:** أشاد مالك بن نبي بحركة الإصلاح التي قام بها العلماء الجزائريون، برئاسة ابن باديس، والتي جعلتهم أقرب الحركات إلى النفوس، وأدخلها في القلوب، بفضل منهاجهم السنني القرآني في تغيير النفوس، "إذ كان أساس منهاجهم الأكمل قوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[الرعد: 11].

فأصبحت هذه الآية شعار كل من ينخرط في سلك الإصلاح في مدرسة (ابن باديس) وكانت أساسا لكل تفكير. فظهرت آثارها في كل خطوة، وفي كل مقال، حتى أشرب الشعب في قلبه نزعة التغيير فأصبحت أحاديثه تتخذها شرعة ومنهاجا، فهذا يقول: لا بد من تبليغ الإسلام إلى المسلمين، وذاك يعظ :فلنترك البدع الشنيعة البالية التي لطخت الدين، ولنترك هذه الأوثان. وذلك يلحّ: يجب أن نعمل، يجب أن نتعلم، يجب أن نجدد صلتنا بالسلف الصالح، ونحيي شعائر المجتمع الإسلامي الأول.

وإنه لتفكير سديد؛ ذلك الذي يرى أن تكوين الحضارة كظاهرة اجتماعية إنما يكون في نفس الظروف والشروط التي ولدت فيها الحضارة الأولى، كان هذا صادرا عن عقيدة قوية، ولسان يستمد من سحر القرآن تأثيره، ليذكّر الناس بحضارة الإسلام في عصوره الزاهرة."[25]

---

[22] مفكر جزائري، أستاذ وباحث بجامعة الجزائر، ووزير سابق للتعليم العالي (1990-1991م)، وسفير بالقاهرة (1994-2001م)

[23] سالم محمد بهي الدين، ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1420 هـ/ 1999 م.، ص 5-بتصرف.

[24] الصلابي علي محمد، العلامة ابن باديس .. لطائفه التربوية ومنهجه القرآني (2)، مدونات الجزيرة نت، 2018/04/29م

[25] ابن نبي مالك، شروط النهضة، ص 27-28.

- **سنة الأخذ بالأسباب:** في معرض تفسيره لقوله تعالى:﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء :20]، يقول ابن باديس: "أن أسباب الحياة والعمران والتقدم فيهما مبذولة للخلق على السواء، وأن من تمسك بسبب بلغ –بإذن الله-إلى مسببه، سواء أكان براً أو فاجراً، مؤمناً أو كافراً. وهذا الذي أفادته الآية الكريمة، مشاهد في تاريخ المسلمين قديما وحديثا، فقد تقدموا حتى سادوا العالم، ورفعوا علَم المدنية الحقّة بالعلوم والصنائع، لما أخذوا بأسبابها كما يأمرهم دينهم، وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها بإهمال تلك الأسباب، فخسروا دنياهم، وخالفوا مرضاة ربهم، وعوقبوا بما هم عليه من الذل والانحطاط، ولن يعود إليهم ما كان لهم، إلا إذا عادوا إلى امتثال أمر ربهم، في الأخذ بتلك الأسباب"[26]

- **سنة المرحلية والتدرج:** "من السنن المهمة التي تعامل معها عبد الحميد بن باديس: سنة المرحلية والتدرج، ذلك أن المشروع الذي نذر له الشيخ حياته هو تحطيم المشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر، وهذا المشروع ضخم، يتطلب جهوداً دؤوبة متواصلة، تكون بمثابة حلقات متسلسلة، تمثل كل حلقة مرحلة معينة، وهذه المراحل يجب أن تكون مشدودة إلى بعضها البعض، بحيث تكون المرحلة السابقة ممهدة للاَّحقة، واللاحقة مكملة للسابقة."[27]

- **سنة الابتلاء:** تعرض العلاَّمة ابن باديس، كغيره من الجزائريين، للابتلاءات والمحن العظيمة والمضايقات الشديدة، على يد المستعمر الفرنسي، ونجا بعناية الله من محاولة اغتيال ذات مساء من يوم 9 جمادى الثانية 1345هـ/ 14 ديسمبر 1926م، بعد صلاة العشاء، وفراغه من درسه اليومي، بالجامع الأخضر، وخروجه منه قاصداً بيته.

2.3. مقاربة مالك بن نبي

شعر مالك بن نبي، منذ ريعان شبابه، بمحنة العالم الإسلامي، الذي كان يعيش على هامش التاريخ، مما جعله دائم التفكير في جوهر هذه المحنة، وما آل إليه حال الأمة الإسلامية من ضعف وتخلف، بعد قوة وحضارة عالمية راقية، دامت أكثر من ثمانية قرون! وكيف السبيل للخروج من هذه المحنة؟

وفي تقييمه لجهود المفكرين والمصلحين الذين سبقوه، في تشخيصهم لأزمة العالم الاسلامي، لاحظ مالك بن نبي "أن كل مصلح قد وصف الوضع الراهن تبعا لرأيه أو مزاجه أو مهنته. فرأى رجل سياسي كجمال الدين الأفغاني: أن المشكلة سياسية تحل بوسائل سياسية، بينما قد رأى رجل دينٍ كالشيخ محمد عبده، أن المشكلة لا تحل إلا بإصلاح العقيدة والوعظ. إلخ ... على حين أن كل هذا التشخيص لا يتناول في الحقيقة المرض، بل يتحدث عن أعراضه."

أما ابن نبي فرأى، بعد تأمل عميق وبحث دقيق، أن "مشكلة كل شعب، هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها."[28]

---

[26] طالبي عمار، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وأثاره، دار كردادة للنشر والتوزيع، بوسعادة، الجزائر، طبعة خاصة، 2013م، مجلد 1، جزء 1، ص 205.

[27] الصلابي علي محمد، العلامة ابن باديس .. لطائفه التربوية ومنهجه القرآني(2)

[28] ابن نبي مالك، شروط النهضة، ص 21.

"فالمسألة الحضارية مسألة محورية في فكر مالك بن نبي، وهي منظور كلي لتشخيص أمراض أمتنا وحضارتنا الإسلامية، ولوصف العلاج لها؛ منظور يوفر فهما كليا للحضارة دون اختزال لمشكلاتها الجزئية. فينظر إلى مشكلات الأمة على أنها كلها تنضوي تحت ما يسميه "مشكلة الحضارة"، باعتبار أن الحضارة هي الإطار الذي ينظم كل هذه الأجزاء؛ التي نسميها في مكان ما مشكلة سياسية، وفي مكان آخر مشكلة اقتصادية، وفي مكان ثالث مشكلة أخلاقية. وهو يرى أن العالم الإسلامي في بحثه عن صياغة بناء حضاري جديد، عليه أن يبحث أولا في أسباب الغياب الحضاري الذي دام مدة طويلة كان خلالها خارج التاريخ، كأن لم يكن له هدف."[29]

"ولهذا، فالعالم الإسلامي أضاع وقتا طويلا، وجهدا كبيرا، بسبب عدم التحليل المنهجي للمرض، الذي يتألم منه منذ قرون طويلة فذهب يتلمس الحلول الجزئية، ونظر إلى القضية في صورها التجزيئية، فاختلفت الأطروحات؛ من الطرح السياسي إلى الطرح الاقتصادي إلى الطرح الأخلاقي وما إلى ذلك. ولهذا ينبغي البحث في جوهر الأزمة وحقيقة المرض، وعدم الاكتفاء بمعالجة الأعراض أو المظاهر الجزئية التي تطفو هنا وهناك في صورة أو أخرى. كما أن كل هذه الأعراض تحتاج إلى إطار من خلاله نرى كل الجوانب المتعلقة بالأزمة، ولا نغيّب أو نهمل أحدها، وهذا الإطار يكمن في إرجاع الأزمة إلى جوهرها؛ الذي هو مشكلة غياب حضارة المسلم، وغيابه عن صنع التاريخ، وهو إطار ينبغي أن ينظم كل الجهود الإصلاحية، لنحقق النهضة المنشودة التي طال العمل على تحقيقها في العالم الإسلامي."[30]

ولإعداد مشروع حضاري متكامل تتحقق به الغاية المنشودة، سلك مالك بن نبي المقاربة التكاملية، فكان لزاما عليه أن يغوص في أعماق التاريخ، ليدرس أسباب نهوض وسقوط الحضارات، ويستنبط منها القوانين السننية الناظمة لها، ويعالج سائر "مشكلات الحضارة"، فاستخدم من أجل ذلك منهجا متميزا، شدّ انتباه الدارسين لفكره.

والمنهج المتميز، الذي تناول به مالك بن نبي "مشكلات الحضارة" وصناعة إنسان النهضة ، في تقديري، هو "**منهج مركب بمقاربات متعددة التخصصات**"[31] (الشكل 1)، وظف فيه مناهج البحث العلمي المعروفة، كالمنهج التاريخي، و النفسي، والتحليلي، والوصفي، والمقارن، والتجريبي، بالإضافة إلى المنهج السنني، ومنهج التخلية والتحلية، وذلك بمقاربات من العلوم الإسلامية، والعلوم الإنسانية والاجتماعية، والعلوم الأساسية، وعلوم المادة والحياة، وغيرها من العلوم المساعدة على دراسة الحضارة ومعالجة مشكلاتها، بأسلوب متميز، جمع فيه بين النظرة السننية الشاملة، والدّقة العلمية، والعمق الفلسفي، والواقعية والموضوعية.[32]

[29] ابن لحسن بدران، مالك بن نبي مستأنف الخلدونية وفيلسوف الحضارة، دار آرام للنشر والترجمة، 1444هـ/2022م، ص 35-36

[30] ابن لحسن بدران، مالك بن نبي مستأنف الخلدونية وفيلسوف الحضارة، ص36-37

[31] للمزيد من التفاصيل حول هذا المنهج ومبرراته، ينظر في مداخلتنا الموسومة: منهج مالك بن نبي في دراسة مشكلات الحضارة وعلاقته بمنظور السننية الشاملة، الملتقى الوطني حول الدراسات السننية ¬في الفكر الإسلامي المعاصر، جامعة الحاج لخضر باتنة 1، يوم 22 نوفمبر 2023م

[32] لعربي عبدالله، مالك بن نبي .. المفكر الرسالي، الملتقى الدولي الموسوم "فكر مالك بن نبي.. بين مظاهر الجمود وآليات التفعيل"، يومي 28 و29 نوفمبر 2017، جامعة العربي بن مهيدي بأم البواقي، الجزائر. -بتصرف.

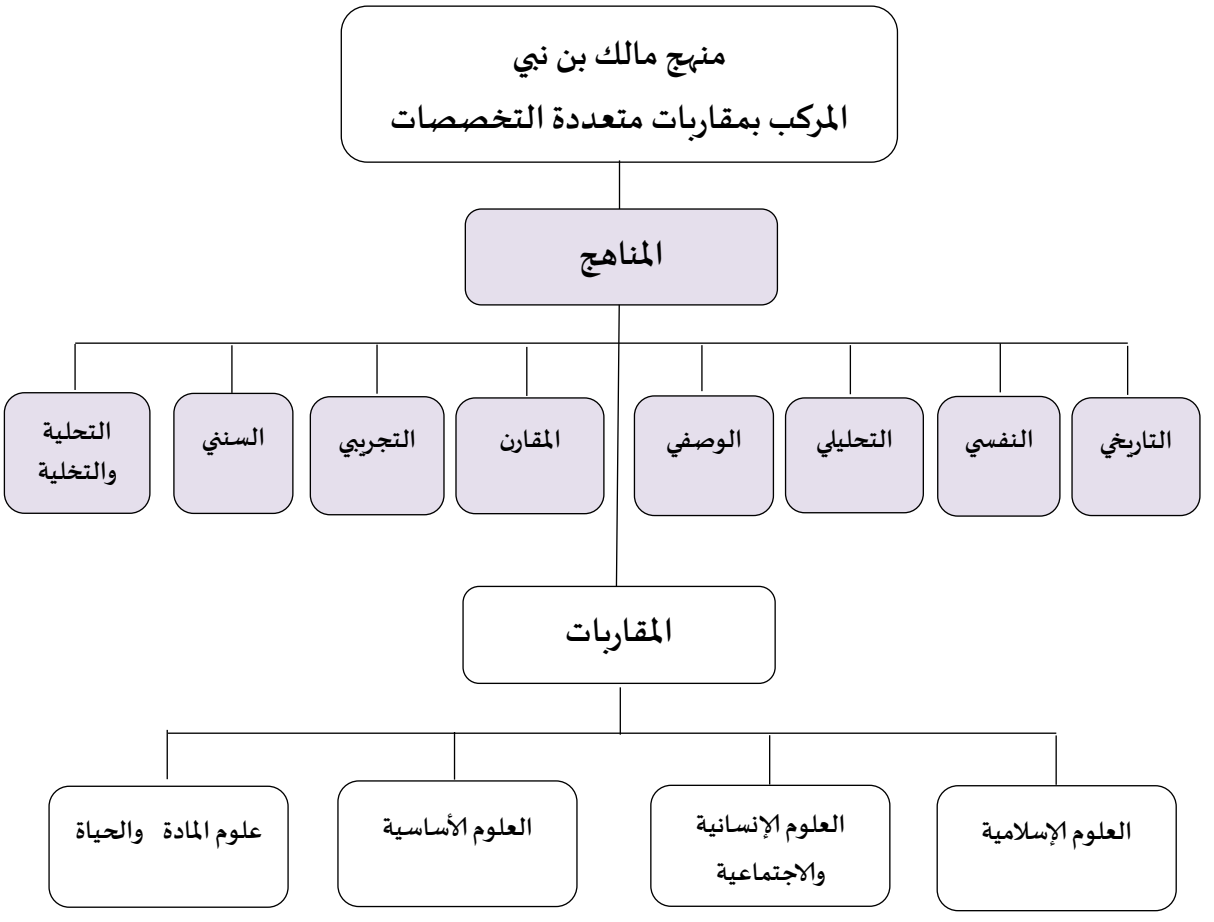

الشكل 1-منهج مالك بن نبي المركب بمقاربات متعددة التخصصات

وفي هذه المقاربة التكاملية، ذات المنهج المركب بالمقاربات المتعددة التخصصات، وظف ابن نبي عدة مناهج، كما هو مبين في الشكل السابق، منها المنهج السنني الذي يهدف، في تقديري، إلى البحث عن السنن الناظمة للكون والحياة والإنسان، من أجل استثمارها في حياة الأفراد والجماعات والدول والحضارات.

وتعود بدايات اهتمام ابن نبي بالمنهج السنني في دراسة الحضارة، إلى قراءته مقدمة ابن خلدون، وهو بين الخامسة عشر والعشرين من العمر.[33]

وأشاد ابن نبي بعبقرية ابن خلدون الذي تمكن قبل غيره "من اكتشاف منطق التاريخ في مجرى أحداثه، فكان بهذا المؤرخ الأول الذي قام بالبحث عن هذا المنطق، إذا لم نقل إنه قد قام بصياغته فعلاً. فقد كان يمكن أن يكون أول من أتيح له أن يصوغ قانون الدورة التاريخية (La Loi du Cycle)، لولا أن مصطلح عصره قد وقف به عند ناتج معين من منتوجات الحضارة ونعني به الدولة، وليس عند الحضارة نفسها."[34]

[33] ابن نبي مالك، القضايا الكبرى، دار الوعي للنشر والتوزيع، رويبة، الجزائر، ط1، 1434هـ/2013م.، ص172.بتصرف.

[34] ابن نبي مالك، شروط النهضة، ص 69.

"لقد تأثر ابن نبي بابن خلدون في تركيزه على دراسة المجتمع الإنساني والعمران البشري، والبحث في السنن التي تحكم حركة التبدل والتغير والتداول في التاريخ."[35]

لكن، و"بالرغم من التأثير الخلدوني الواضح في فكر مالك بن نبي، فإن التلميذ خالف وانتقد واستدرك على أستاذه أحيانا."[36]

"فقد أبدع مالك رحمه الله في تحليل أسباب أزمتنا الحضارية، من خلال رؤية متميزة للسنن التي تحكمها، فساهم بذلك في تصحيح النظرة للأزمة، حيث قدمها للناس بصيغة قوانين قابلة للفهم، ومن ثم قابلة للتسخير في حل هذه الأزمة."[37]

و"يعدّ مالك بن نبي مدرسة في الفكر الإسلامي المعاصر، لم ينصب اهتمامه على تفسير النص، ولكن اتجه إلى دراسة سنن التخلف والتحضر، ليرسم لأمته طريقا لاستعادة دورها ورسالتها في التحضر، والشهادة والريادة. فهو صاحب منظور ومنظومة فكرية متميزة لا يمكن نسبتها إلى أحد آخر، بالرغم من استفادته من تراث المسلمين وغيرهم في بناء نسقه الفكري ومنظوره الحضاري."[38]

وعلى نهج هذه المدرسة الحضارية في اتجاهها والسننية في منهجها، سار الكثير من الدارسين والباحثين عن المخرج للأزمة الحضارية التي تعاني منها الأمة الإسلامية، وظهر ت العديد من الأبحاث والدراسات القيمة في هذا المجال، نذكر منها، على سبيل المثال لا الحصر، مساهمات المفكرين: جودت سعيد والطيب برغوث.

يُعد المفكر السوري الأستاذ جودت سعيد من السباقين الذين ساروا على نهج مالك بن نبي، وساهموا بإسهامات قيّمة، من خلال السلسلة التي قدمها تحت عنوان (أبحاث في سنن تغير النفس والمجتمع)، الهادفة الى إلقاء المزيد من الأضواء على جوانب أزمتنا الحضارية، ولفت أنظار المسلمين إلى أهمية السنن وضرورة الأخذ بها في تغير النفس والمجتمع في مشروع النهوض الحضاري المنشود.

وتجدر الإشارة إلى أن مالك بن نبي قام بتقديم أول كتاب صدر لجودت سعيد، في هذه السلسلة، تحت عنوان (حتى يغيروا ما بأنفسهم)، جاء فيها:

"إن كل قانون يفرض على العقل نوعا من الحتمية، تقيد تصرفه في حدود القانون. فالجاذبية قانون طالما قيد العقل بحتمية التنقل برا أو بحرا، ولم يتخلص من هذه الحتمية الإنسان بإلغاء القانون، ولكن بالتصرف مع شروطه الأزلية بوسائل جديدة، تجعله يعبر القارات والفضاء، كما يفعل اليوم. فإذا أفادتنا هذه التجربة شيئا، إنما تفيدنا بأن القانون في الطبيعة، لا ينصب أمام الإنسان الدائب استحالة مطلقة، وإنما يواجهه بنوع من التحدي يفرض عليه اجتهادا جديدا للتخلص من سببية ضيقة النطاق. وكأنما الاخ جودة سعيد ينقل هذه القضية من مجال الطبيعة إلى مجال التاريخ."[39]

---

[35] ابن لحسن بدران، مالك بن نبي مستأنف الخلدونية وفيلسوف الحضارة، دار آرام للنشر والترجمة، 1444هـ/2022م، ص21.

[36] ابن لحسن بدران، مالك بن نبي مستأنف الخلدونية وفيلسوف الحضارة، ص 24.

[37] كنعان أحمد محمد، أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، كتاب الأمة، العدد 26، الدوحة، قطر، 1411هـ، ص18.

[38] ابن لحسن بدران، مالك بن نبي مستأنف الخلدونية وفيلسوف الحضارة، ص35.

[39] سعيد جودت، حتى يغيروا ما بأنفسهم، مؤسسة الإسراء للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط8، 1989م، ص10.

أما المفكر الجزائري الدكتور الطيب برغوث ذهب بعيدا في مجال المعرفة والثقافة السننية، من خلال سلسلته الموسومة (أفاق في الوعي السنني) التي تضم أكثر من 30 كتابا تعرض منظور السننية الشاملة من مداخل متعددة. وسنسلط الضوء، بشيء من التفصيل، على هذا المنظور غير المسبوق في تاريخ الفكر الإسلامي المعاصر. وقبل ذلك سنبسط القول حول مفهوم الثقافة السننية ومحوريتها في النهضة الحضارية.

ثانيا -الثقافة السننية والنهضة الحضارية

1. الثقافة السننية

تطرق الكثير من الدارسين والباحثين في السنن الإلهية إلى مفهوم الثقافة السننية، فعرفها الطيب برغوث بأنها: "الوعي العقدي والمعرفي والمنهجي والتسخيري أو الإنجازي المكين، الذي يمنح الفرد والمجتمع، المزيد من الاقتدار على تلبية حاجاتهم المعرفية والروحية والاجتماعية والحضارية، ومواجهة التحديات التي تحول دون بلوغهم أقصى مستويات الإشباع لهذه الحاجات." [40]

وعرفها كذلك بأنها: "تحويل المعرفة السننية، والوعي بها، إلى واقع فكري ونفسي وروحي وسلوكي واجتماعي وحضاري فعلي معيش."[41]

وترى سلمى العوفي أن "الثقافة السننية هي اتجاه معرفي فكري سنني تاريخي حضاري شمولي، يكشف عن مدى حضور السنن الإلهية نظرياً وعملياً في مجالات الحياة المختلفة، ويدعو إلى بناء المعرفة السننية وتشكيل العقل السنني وبرمجته على تفسير الوقائع الحيوية وفق سنن الله الكونية والإنسانية."[42]

ويذهب يونس ملال الى أن "الثقافة السننية هي الثقافة التي يسعى أصحابها إلى التعرف إلى سنن الله في الآفاق والأنفس. في الإنسان والتاريخ والمجتمع والكون، ويسعون لتحويل هذه المعرفة إلى قوانين علمية ثابتة، ثم يرسمون الخطط للعمل وفق هذه القوانين، فعلى وفق سنن الله ونظامه الثابت المطرد يتم الإعداد والعمل. ثم إذا تخلفت النتائج المرجوة، يعود أصحاب هذه الثقافة إلى المراجعة والنقد الذاتي والبحث عن مكامن القصور والخلل، دون كلل أو ملل، لمعرفة مكمن الزلل. يفعلون كل ذلك مستعينين بالله، صادقين معه، فعلى هدي من الله وفي إطار نظامه الذي بثه في الوجود يكون سيرهم سيرا علميا بصيرا لا عاطفيا ضريرا!! ."[43]

ويمكنني القول بأن الثقافة السننية هي الثقافة القائمة على الوعي بأن الكون والحياة والإنسان تحكمها سنن إلهية مطردة، وعلى تحويل المعرفة السننية إلى واقع فكري وسلوكي ملموس في دنيا الناس، من أجل إدارة حياة الأفراد والمجتمعات والدول والحضارات بكفاءة وفعالية.

---

[40] برغوث الطيب، الفعالية الحضارية والثقافة السننية، دار النعمان للطباعة والنشر، المحمدية، الجزائر، ط4، 2019م.، ص55-56.

[41] برغوث الطيب، الفعالية الحضارية والثقافة السننية، ص8-بتصرف يسير.

[42] العوفي سلمى بنت حضيض، الثقافة السننية في الفكر الإسلامي المعاصر-دراسة تأصيلية تطبيقية، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، 1442ه/2021م.، ملخص الرسالة.

[43] ملال يونس، شيء عن الثقافة السننية، موقع جمعية الاحياء والتجديد، 15 مارس 2023م، https://ahya.ly

2. محورية الثقافة السننية في النهضة الحضارية

تشكل تنمية المعرفة والثقافة السننية المتوازنة "نقطة الارتكاز المحورية الكلية في أي مشروع نهضة حضارية إنسانية متوازنة، بإمكانها أن تحفظ وتؤمّن للفرد كرامته الإنسانية، وتحقق للمجتمع أمنه الثقافي والاجتماعي والحضاري، وتضعه في الموقع المحوري الذي يستحقه على خريطة المداولة الحضارية العالمية، التي لا يصمد في وجه مدافعاتها الحضارية الشرسة، إلا من وطَّن نفسه على معرفةٍ وثقافةٍ سننية صحيحة."[44]

"فالمعرفة السننية التي تتحول إلى ثقافة سننية شاملة، عبر المحاضن والمعاجِن التربوية المجتمعية الشاملة، ويحملها جميع أفراد المجتمع أو جلهم، ويتمثَّلون حقائقها وقيمها ونماذجها، في تفكيرهم وسلوكهم وحركتهم، وعلاقاتهم بربهم وأنفسهم وغيرهم من الناس، وبقية المخلوقات الأخرى، هي التي تشحذ فعالية الفرد والمجتمع، وترفع كفاءتهما الإنجازية إلى أعلى مستوياتها المطلوبة، وترتقي بوتائر مدافعتهما ومداولتهما الحضارية، وتمكِّنهما من المضي قدما على طريق النهضة الحضارية المنشودة."[45]

وطريق النهضة الحضارية المتوازنة لا يتم إلا عبر تنمية المعرفة والثقافة السننية المتوازنة، "لأن المعرفة والثقافة السننية هي روح النهضة الحضارية وقوامها وشرطها الأساس. ولذلك فإن أية غفلة عنها، ستكون حتما على حساب هذه النهضة وروحها وشرط قيامها، إن عاجلا أم آجلا."[46]

فهذا هو "قانون النهضة الحضارية العام! وخاصة إذا كانت نهضة حضارية ذات نفَس إنساني وأخلاقي وكوني متوازن. وفي هذا المعنى جاء في القرآن الكريم قوله تعالى:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[الأنفال: 53]. وقوله سبحانه:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[الرعد: 11]. وجوهر التغيير هو ما يحدث في المنظومة المعرفية والثقافية للفرد والمجتمع، بحيث تكون منظومة سننية مطابقة لحقائق الفطر والطبائع والأنظمة الكونية، التي أودعها الله تعالى في كل مفردة كونية، لكي تؤدي وظيفتها الوجودية الذاتية والكونية بالفعالية والكفاءة المطلوبة."[47]

و"النظام الكوني مخطَّط ومقدَّر ومسيَّر بدقة متناهية، عبر سنن منتظمة لا تغيير ولا تبديل فيها، كما قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾[الفرقان: 2]. وقال سبحانه:﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: 8]. وقوله تعالى:﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر: 49]. أي بنظام دقيق محكم صالح لأداء وظيفته الوجودية.

فمن عرَف هذه السنن، وعرف كيف تشتغل، وعرف كيف يستثمرها بالكفاءة والفعالية المطلوبة في حياته الخاصة والعامة، ستتحرك حياته نحو الانسجام والتكامل والفعالية والنهضة والصعود الحضاري، ومن

---

[44] برغوث الطيب، الفعالية الحضارية والثقافة السننية، ص5.

[45] المرجع نفسه، ص5.

[46] المرجع نفسه، ص5-6.

[47] برغوث الطيب، الفعالية الحضارية والثقافة السننية، ص6.

جهل ذلك أو تجاهله، ستضطرب حياته الخاصة والعامة، وتتنافر جهوده وتهتلك ذاتيا واجتماعيا وكونيا، وتتجه حياته نحو الضعف والغثائية والتبعية الحضارية المذلة. "[48]

وصفوة القول ما ذكره الطيب برغوث، في ثنايا تعريفه بسلسلته الموسومة (آفاق في الوعي السنني) : أن النهضة الحضارية المتوازنة للمجتمع، لا تتحقق إلا عبر ثقافة النهضة الحضارية المتوازنة. فلا يمكن لمجتمع أن يحقق نهضته الحضارية، بدون أن تكون لديه ثقافة النهضة الحضارية.

وثقافة النهضة الحضارية في المجتمع، هي محصلة ثقافة سننية متكاملة ومتوازنة، تحملها نخبته، وتعمّم الوعي بها لدى كل أجياله، وترسّخ العمل بها في جميع مؤسساته ومناهج عمله.

الثقافة السننية المتوازنة، هي محصلة منظور سنني كوني كلي متوازن الأبعاد، تحمله نخبة المجتمع، وتعمّم الوعي به لدى كل أجياله، وترسخ العمل به في جميع مؤسساته ومناهج عمله.

وهذا المنظور السنني الكوني الكلي المتوازن، موجود في القرآن الكريم، إذا ما تم التعامل معه باعتباره منظومة سننية كونية كلية متوازنة، منفتحة على كل المنظومات السننية الكونية الكلية الأخرى ومستوعبة لها، ومتكاملة معها.[49]

و بناء على ما سبق، يمكننا تلخيصه على النحو التالي :

منظور سنني كوني كلي متوازن ⟵ ثقافة سننية ⟵ ثقافة النهضة ⟵ النهضة الحضارية المتوازنة

فالنهضة الحضارية المتوازنة هي محصلة ثقافة النهضة، التي هي محصلة الثقافة السننية، التي هي محصلة المنظور السنني الكوني الكلي المتوازن.

وتجدر الإشارة إلى أن التسمية البديلة لتسمية المنظور السنني الكوني الكلي المتوازن التي استقر عليه الكاتب، في كتبه الأخيرة، هي منظور السننية الشاملة.

فما هو منظور السننية الشاملة؟ وما هي منظوماته الكلية؟ وما هو موقع وأهمية الثقافة السننية الحضارية فيه؟

ثالثا -منظور السننية الشاملة ومنظوماته الكلية

بدأ المفكر الطيب برغوث (المولود في 20 أفريل 1951م)، بالاهتمام بموضوع السننية في سن مبكرة، كما أعرب عن ذلك قائلا: " فمنذ نصف قرن تقريبا من القراءة والبحث والتدريس والتأليف والتأمل المباشر في موضوع السننية، تبين لي بأن " السننية " هي روح الحياة والوجود عامة، إذ أن كل شيء فيهما مخلوق بنظام دقيق موزون، كما قال تعالى:﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر: 49]"[50].

وقد كان من أهم الروافد التي اعتمد عليها في ذلك، كتابات المفكر مالك بن نبي (1905-1973م)، وما شهده من محاضراته، ثم لم يلبث أن صار يدندن حول ما أسماه منظور " السننية الشاملة"؛ وأهمية الوعي به،

---

[48] المرجع نفسه، ، ص6.

[49] هذا جزء من النص الوارد على ظهر كتب سلسلة آفاق في الوعي السنني للطيب برغوث.

[50] برغوث الطيب، السننية الشاملة، مركز الشهود الحضاري، إسطنبول-تركيا، ط1، 1443هـ/ 2021م، ص 15.

باعتباره بؤرة الوعي السنني، ومركز الثقل فيه، وباعتبار أن الوعي السنني الجزئي أو الشبكي، أمره يسير والتراكم فيه سريع، بحكم التعليم والتربية والتجربة والاحتكاك، وتضاعف الخبرات وانتقالها عبر المجتمعات.

ولذلك يرى الطيب برغوث، أننا إذا لم نعرف خريطة النواظم السننية الكونية الكلية، التي تتحرك وتُستثمر في إطارها المعرفة السننية الجزئية الهائلة المُحصَّلة، فإن ذلك سيشكل خطرا كبيرا على حياة الأفراد والمجتمعات البشرية، ولهذا انصب اهتمامه على المساهمة في بلورة هذه الخريطة السننية الكلية من خلال منظوره، وحرص على تبليغ ذلك لأجيال المجتمع والأمة، وحاول إقناعهم بأن طريق التكامل الذاتي للأفراد، وطريق النهضة الحضارية المكينة للمجتمعات، وتحقيق الخلافة البشرية الرشيدة في الأرض، والتوقي من مخاطر الغثائية والتبعية الحضارية، يمر حتما عبر الوعي الفكري بهذا المنظور، والتجسيد العملي لمعطياته في حركة الحياة[51].

وإذا كان منظور "السننية الشاملة" بهذه الأهمية الكبيرة وهذه القيمة المحورية الحاسمة في حياة الناس، أفرادا ومجتمعات وأمما وحضارات، فلعل سائلا يسأل عن ماهية منظور " السننية الشاملة "، وما هي منظوماته الكبرى؟

1. منظور السننية الشاملة

عرَّف الطيب برغوث منظور السننية الشاملة بصيغ متنوعة، تصب كلها في المقصد الكلي للمنظور، يمكننا تلخيصها في هذا التعريف:

منظور السننية الشاملة؛ هو:" الرؤية الكونية الشاملة، لشبكة المنظومات السننية الكلية المطردة، الناظمة للوجودين الكوني والبشري، من أجل تكامل وتوازن حياة الإنسان، وفعاليتها وخيريتها وبركتها ورحمتها في الدنيا، والاستعداد بجدية وكفاءة للحياة الأبدية في الآخرة".[52]

ونلاحظ أن هذا التعريف انبنى على أربعة محاور، "هي: طبيعة المنظور (رؤية كونية شاملة)، والقاعدة المركزية التي تأسس المنظور عليها (شبكة من المنظومات السننية الكلية المطردة)، والوظيفة (انتظام الوجودين الكوني والبشري)، والغاية (تكامل وتوازن حياة الإنسان، وفعاليتها وخيريتها وبركتها ورحمتها في الدنيا، والاستعداد بجدية وكفاءة للحياة الأبدية في الآخرة)."[53]

2. المنظومات السننية الكلية الأربع

يتكون منظور السننية الشاملة من أربع منظومات سننية كبرى:

1.2. منظومة سنن الوعي الكوني الغائي الشامل:

---

[51] برغوث الطيب، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية المدافعة والتجديد، دار النعمان للطباعة والنشر، المحمدية، الجزائر، ط 1، 2019 م، ص 08 -09.

[52] بوعافية عيسى، ماهية " السننية الشاملة "، سبتمبر 2023، https://www.facebook.com/mountada.aldirassat

[53] المرجع نفسه.

تحدد للإنسان "غايات الحياة العاجلة والآجلة ومقاصدها، للوجودين الكوني والإنساني، وعلاقاتهما بالله تعالى الموجد لهما، والمدبر لأمرهما، والمسخر لكل منهما لما وجد من أجله، والمهيمن على مصائرهما."[54]

فهذه المنظومة تجيب عن التساؤلات الكبرى التالية: من هو الانسان؟ ما حقيقته؟ ما علاقته ببقية المكونات الكونية الأخرى؟ ما مركزه في الوجود؟ ما دوره فيه؟ ما هي الإمكانات التي زُود بها أو يمتلكها لأداء هذا الدور في الحياة؟

2.2. منظومة سنن الوعي الاستخلافي الشامل:

ترشد الإنسان "إلى كيفية تحرك الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض؛ في مساراتها التكاملية المتوازنة الصاعدة، أو التنافرية المختلة المتقهقرة، والشبكات السننية الكلية التي تقف وراء ذلك كله، وتُنظّمه في الاتجاهين بشكل مطَّرد."[55]

فهذه المنظومة تجيب عن هذا التساؤل الكبير: ما هي القوانين الكلية التي تحكم الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، قوة وضعفا، أو صعودا وتراجعا؟

3.2. منظومة سنن الوعي التسخيري الشامل:

ترشد الإنسان إلى "المؤثرات المباشرة الحاسمة على الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض؛ في قوتها وانسجامها وخيريتها وبركتها ورحمتها وصعودها، أو في ضعفها واضطرابها وتنافريتها وضنكيتها وتراجعها."[56]

فهذه المنظومة تجيب عن التساؤلات الكبرى التالية: ما هي إمكانات وشروط التحقق بالتوحيد والعبودية لله تعالى، والخلافة له في الأرض؟، وكيف تتم إقامة العمران الحضاري فيها؟ وكيف نستثمر ذلك كله في تهيئة المصير الأخروي للإنسان؟

وهي تجيب كذلك على السؤال: هل يملك الإنسان كل الإمكانات والقدرات التي تعينه على إنجاز ما حددته له المنظومة الأولى، ومواجهة تحديات المنظومة الثانية؟

4.2. منظومة سنن الوعي الوقائي الحضاري الشامل:

تمكِّن الإنسان من "المحافظة على منجزات حركته الحضارية، وضمان استمراريتها الصاعدة، على خط الفعالية والرشد والخيرية والبركة والرحمة العامة، لأكبر فترة زمنية ممكنة، وإبعادها عن الحركة على خط التيه والفساد والضعف والضنكية الحضارية، المؤثرة سلبا على الحياة الدنيوية للناس وعلى المصائر الأخروية لأصحابها."[57]

---

[54] برغوث الطيب، السننية الشاملة، ص 22-23.

[55] المرجع نفسه، ص 23.

[56] المرجع نفسه، ص 23.

[57] برغوث الطيب، السننية الشاملة، ص 23-24.

فهذه المنظومة تجيب عن التساؤل الكبير: كيف يحمي الإنسان منجزات حركته الحضارية في كل مراحلها (المبكرة والمرافقة والاستدراكية)، ويحافظ عليها، ويضمن استمراريتها الصاعدة أكبر فترة زمنية ممكنة؟

وبناء على ما سبق ذكره، يمكننا رسم معالم خريطة منظور السننية الشاملة، المستمدة من القرآن الكريم[58]، على النحو المبين في الشكل 2.

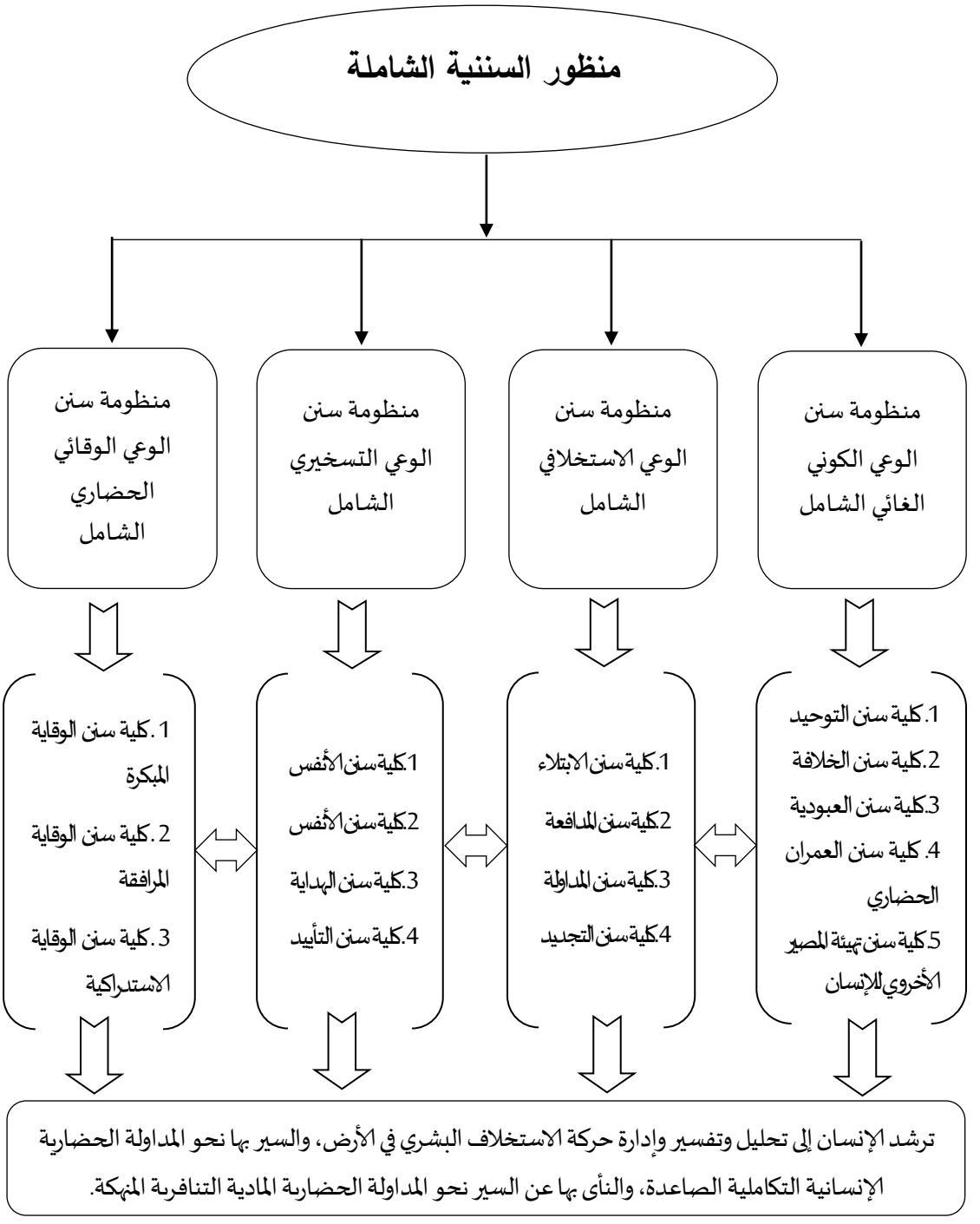

الشكل 2. معالم خريطة منظور السننية الشاملة

[58] برغوث الطيب، مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، دار النعمان للطباعة والنشر، المحمدية، الجزائر، ط1، 2017م.

إن معالم هذه الخريطة، ترشد الإنسان إلى "تحليل وتفسير وإدارة حركة الاستخلاف البشري في الأرض، والسير بها قدما في اتجاه المداولة الحضارية الإنسانية التكاملية الصاعدة، والنأي بها عن السير في اتجاه المداولة الحضارية المادية التنافرية المنهكة."[59]

ويُبين الطيب برغوث أهمية بناء الوعي بهذه المنظومات الأربع، لأن حياة الأفراد وحركة المجتمعات، تنسجم وتتكامل وتتوازن، وتعظم فعاليتها وخيريتها وبركتها ورحمتها العامة، ويتعزز رشدها وأمنها ونفوذها الحضاري، بقدر تمكن نخبها الفكرية والسياسية والاجتماعية من بناء الوعي بهذه المنظومات الأربع، لدى الأجيال، وإقامة الحياة على ضوء معطياته ومقتضياته.[60]

كما يحذّر من أي اختلال في العلاقة بأي نوع من أنواع هذه المنظومات الأربعة، لأنه " ستكون له آثاره السلبية المباشرة أو غير المباشرة، على حياة الأفراد وحركة المجتمع، وعلى أمنهم ووضعهم ومركزهم الحضاري، لأن حركة المدافعة والمداولة الحضارية المحيطة بهم، ستدفع بهم إلى الخلف والضعف والتخلف والغثائية والتبعية الحضارية المهينة، إن هم لم يتداركوا أمرهم بسرعة وجدية، ويكيفوا وضعهم مع منطق ومقتضيات سنن الله في المدافعة والمداولة الحضارية." [61]

رابعا-موقع وأهمية الثقافة السننية الحضارية في منظورالسننية الشاملة

إن منظور السننية الشاملة، كما أسلفنا، يقوم على أربعة منظومات كلية متكاملة، وكل منظومة منها تقوم هي الأخرى على كليات سننية متكاملة، كما هو مبين في الخريطة السننية السابقة.

وبما أن منظومتي سنن الوعي الاستخلافي الشامل وسنن الوعي التسخيري الشامل تتجلى فيهما الثقافة السننية المرتبطة بالنهضة الحضارية، نشير إلى كلياتهما السننية في الآتي.

1. كليات منظومة سنن الوعي الاستخلافي الشامل

1.1. كلية سنن الابتلاء: في المنظور السنني القرآني، الابتلاء سنة جارية في حياة الأفراد والجماعات والدول والحضارات، لا ينجو منه أحد، وهو علّة خلق الموت والحياة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملك :2].

الابتلاء هو القانون المدخلي الكلي، لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، "فمن وعى هذا القانون الكلي للحياة، ووطّن نفسه على شروطه، استقامت حياته، وأمكنه تحقيق خلافته في الأرض، وعبوديته لله تعالى، وإقامة حظه من العمران الحضاري، واستفادته من ذلك كله في تحضير مآلات مصيره الأخروي، ومن فاته

[59] الطيب برغوث، نحو أكاديمية وطنية لتنمية المعرفة والثقافة السننية، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر 2017، ص 36.

[60] برغوث الطيب، السننية الشاملة، ص 24. بتصرف.

[61] المرجع نفسه، ص 24.

وعي ذلك، اضطربت حياته، وتعذر عليه تحقيق خلافته في الأرض، وعبوديته لله تعالى، وإنجاز حظه من العمران الحضاري، وأخفق في تحضير مصيره الأخروي."[62]

"والنهضات الكبرى في حياة الأفراد وفي حركة المجتمعات، ترتبط دوما بمدى وعي الناس بحقيقة الابتلاء، وبمدى استيعابهم لدوره في الحياة وفي حركة الاستخلاف البشري في الأرض، وبمدى استيعابهم لدوره في الحياة الفردية والجماعية."[63]

وعليه "يجب أن يشكل تأسيس وتعميق الوعي بقانون الابتلاء، مكونا أساسا من مكونات النظم الفكرية والثقافية والتربوية في مؤسسات المجتمع الأساسية، وخاصة منها الأسرة والمدرسة والجامعة والإعلام، والمجتمع السياسي والمدني عامة، بحيث تشتغل كلها بنشر وتعميق وتوطين الوعي بالمعرفة والثقافة السننية الخاصة بقانون الابتلاء لدى أجيال المجتمع، حتى تظل مُنشَدّة إلى مقاصده ومقتضياته من ناحية، وحتى تحرص دوما عل تمثلها في تفكيرها وسلوكها وحركتها الاجتماعية من ناحية أخرى."[64]

أما "كيف تتجلى حقائق هذا القانون الكلي في حركة الاستخلاف البشري في الأرض؟ أو كيف يعمل أو ينفذ هذا القانون في حياة البشر، أفرادا ومجتمعات؟ أو عبر ماذا ينفذ هذا الابتلاء في حركة حياة الأفراد والمجتمعات؟ وهل هناك سنن كلية أخرى تنفذ بها مفاعيله في حياة الأفراد وحركة المجتمعات؟"[65]

فإن "منظور السننية الشاملة لم يهمل هذه القضية الأساسية، في بناء الوعي بالمنظومات السننية الكلية التي تحكم الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، بل استوعبها بشكل كامل وعميق ومتوازن، كما سنرى ذلك من خلال القانون الكلي الثاني، وهو قانون المدافعة"[66] أو كلية سنة المدافعة.

2.1. كلية سنة المدافعة: إن "التدافع والمدافعة آلية سننية كلية عامة مطردة في النظام الكوني، بها تتحرك سائر مفرداته، لكي يؤدي كل منها وظيفته الوجودية الذاتية والتفاعلية أو التكاملية، في إطار التفاعلية التكاملية بين سائر المفردات الكونية التي يخدم بعضها بعضا، ويكمّل بعضها دور بعض، ولا يستغني بعضها عن بعض"[67]

وتؤكد عملية الاستقراء للعوامل الرئيسة الأكثر تأثيرا في الحياة البشرية الفردية منها والاجتماعية والحضارية، "بأن طبيعة المدافعة الثقافية والاجتماعية والحضارية، هي المحرك المباشر للتموجات الحضارية للتاريخ البشري، والمحدد الأساس لمصائر الصيرورات الحضارية للأفراد والمجتمعات والحضارات الإنسانية على مر التاريخ."[68]

"فالمدافعة الحضارية مكون أساس من مكونات الحياة البشرية، بها تتطور حركة العمران الحضاري في المجتمعات البشرية، وبها تحافظ هذه المجتمعات على وجودها الحضاري، وبها تُلبى حاجات الإنسان وتصان

---

[62] برغوث الطيب، مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، ص 95-96.

[63] برغوث الطيب، سؤال النهضة والحاجة إلى منظور السننية الشاملة، دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، الدوحة، قطر، ط1، 2021م، ص 161

[64] برغوث الطيب، سؤال النهضة والحاجة إلى منظور السننية الشاملة، ص 161

[65] المرجع نفسه، ص 162

[66] المرجع نفسه، ص 162

[67] برغوث الطيب، سؤال النهضة والحاجة إلى منظور السننية الشاملة، ص 162.

[68] برغوث الطيب، مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، ص 96.

كرامته، وبها يُحافظَ على التوازن الحضاري والكوني بصفة عامة. كما يؤكد ذلك القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[البقرة: 251]. وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: 40]."[69]

وحركة "الصعود والتقهقر، والقوة والضعف، والنجاح والفشل، والهيمنة والتبعية، في حياة الأفراد وحركة المجتمعات والحضارات، تتحكم فيها فعالية المدافعة الثقافية والاجتماعية والحضارية أو ضعفها بشكل مطرد. فمن انشحذت وعظمت فعالية مدافعته الثقافية والاجتماعية والحضارية، أمسك بزمام القوة والقدرة والصعود والنفوذ. ومن تبعثرت وضعفت فعالية مدافعته الثقافية والاجتماعية والحضارية، ضعفت قوته، وتضاءلت قدراته، وأجبرته حركة المدافعة الحضارية من حوله إلى التراجع، والدخول في دائرة القوى الغثائية المستضعفة، مسلوبة الإرادة الحضارية، منهوبة الإمكانات الحضارية، مهدورة الكرامة الإنسانية."[70]

أما "لماذا يتدافع البشر؟ وما الذي يقف وراء حركة المدافعة الحضارية؟ وهل هناك غاية وهدف ما تتحرك نحوه هذه المدافعة الحضارية عل المستوى الدنيوي؟ ما هذه الغاية أو الهدف الكلي الذي تتحرك نحوه حركة المدافعة الحضارية؟ وما هو موقع هذا الهدف من منظومات السنن الكلية الناظمة للصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض؟"[71]

فإن "منظور السننية الشاملة لم يهمل كذلك هذه القضية الأساسية، في بناء الوعي بالمنظومات السننية الكلية التي تحكم الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، بل استوعبها بشكل شامل وعميق ومتوازن، كما سنرى ذلك من خلال القانون الكلي التالي، وهو قانون المداولة الحضارية"[72]، أو كلية سنة المداولة.

3.1. كلية سنة المداولة: أكد القرآن الكريم، باعتباره منظومة سننية كونية كلية للهداية والتوجيه نحو الأمثل، على كلية المداولة الحضارية، حتى يوطّن الناس أنفسهم على مقتضياتها وشروطها، ويتجنبوا العواقب الوخيمة للجهل بها. ومن الآيات المؤسسة للوعي بهذه الكلية السننية المحورية، نذكر "قوله تعالى وهو يعقب على هزيمة أحد ويدعو المسلمين إلى ضرورة الانتباه إلى قانون المداولة الحضارية النافذ في البشر، وإلى الأهمية القصوى للأخذ بشروطه: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: 140]."[73]

"فقانون المداولة الحضارية يحرر البشر من كل أنوع الضعف والاستضعاف والهوان والأوهام، ويضعهم جميعا عل قدم المساواة في إمكانية النهوض وتحقيق المداولة الحضارية، إذا هم أخذوا بشروطها المتاحة للجميع، لأنه يؤسس

---

[69] المرجع نفسه، ص 97.

[70] برغوث الطيب، سؤال النهضة والحاجة إلى منظور السننية الشاملة، ص 163-164

[71] المرجع نفسه، ص 166.

[72] المرجع نفسه، ص 166.

[73] برغوث الطيب، مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، ص 99.

لمنطق إمكانية التغيير والتحرك نحو الأفضل، وأنه ليس هناك ضعف أو تخلف أو استضعاف أبدي، كما أنه ليس هناك قوة أو تقدم أو هيمنة أبدية، فالأمر دول بين البشر، بحسب الشروط والسنية المطردة في الحياة.

فالله سبحانه وتعالى وزّع إمكانات الحياة على البشر بعدالة، ومكّن كل إنسان من الشروط الضرورية لتحقيق نهضته ومداولته الحضارية، ولم يحرم منها أحدًا، وترك للإنسان حرية الاختيار والقرار، إمضاء لسنة المسؤولية والجزاء العادل.

إن العدّة الدائمة للنهضة والمداولة الحضارية مبذولة للجميع بلا استثناء، كما يؤكد ذلك القرآن في مثل قوله تعالى:﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[الإسراء: 0 2] "[74]

وخلاصة القول "هي أن المداولة الحضارية محرك محوري للصيرورات الحضارية لحركة التاريخ الانساني بشكل مطرد، فمن حققها على وجهها الصحيح فقد حقق تمكينه وأمنه الحضاري، ومن لم يحققها فإنه لا يستطع تحقيق تمكينه وأمنه الحضاري."[75]

أما "كيف يعزز الإنسان وعيه بمقاصد الابتلاء ومقتضياته، ويحرك حياته كلها في ضوئها، ويبتعد عن كل ما يناقض الابتلاء ومقتضياته ويضعف حضوره في حياة الإنسان؟ وكيف يرفع مستوى أصالة وكفاءة وفعالية مدافعته الثقافية والاجتماعية والحضارية، ويحقق تكامليتها الوظيفية المتوازنة، ويبتعد بها عن الفعالية التتافرية الإهتلاكية المنهكة؟ وكيف يحقق نهضته ومداولته الحضارية، ويتحرك بها على خط الخيرية والإنسانية والبركة والرحمة والصلاح في الأرض، ويبتعد بها عن الحركة على خط الاستكبار والغطرسة والفساد في الأرض؟ وكيف يستثمر هذه المداولة في خدمة وتحضر حياته الأخروية؟ وما الذي يحتاج إليه ذلك كله حتى يؤدي وظيفته في حياة الانسان وحركته الثقافية والاجتماعية والحضارية، وفي مصيره الأخروي، على وجهها الصحيح المفيد؟"[76]

فإن "منظور السنية الشاملة لم يهمل كذلك هذه القضية الأساسية، في بناء الوعي بالمنظومات السنية الكلية التي تحكم الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، بل استوعبها بشكل شامل وعميق ومتوازن، كما سنرى ذلك من خلال القانون الكلي التالي وهو قانون التجديد الحضاري،" أو كلية سنة التجديد."[77]

4.1. كلية سنة التجديد: تبين "النظرة الاستقرائية للعوامل الرئيسة الأكثر تأثيرا في كليات الابتلاء والمدافعة والمداولة الثقافية والحضارية، ومن ثم في تقرير مصائر الصيرورات الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، تؤكد لنا بأن قانون أو سنة التجديد الشامل، هي المؤثر الحاسم في ذلك كله."[78]

---

[74] برغوث الطيب، سؤال النهضة والحاجة إلى منظور السنية الشاملة، ص 168.

[75] المرجع نفسه، ص 171.

[76] المرجع نفسه، ص 171-172.

[77] برغوث الطيب، سؤال النهضة والحاجة إلى منظور السنية الشاملة، ص 172

[78] برغوث الطيب، مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، ص 101.

إن "التجديد هو قانون الحياة بلا منازع، وهو شرط الأصالة الثقافية، والفاعلية الإنجازية، ومنطلق المداولة الحضارية الصاعدة، بدونه لا مفر لأي مجتمع أو أمة من الضعف والتراجع والغثائية والتبعية الحضارية، ولذلك منحه القرآن والسنة والسيرة ابتداء، والخبرة الحضارية الراشدة للأمة والإنسانية ثانيا، عناية قصوى، ووُضِع في مكانه الصحيح كقانون محوري لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، كما يتضح ذلك على سبيل المثال في قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[الأنفال : 53]، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾[الرعد : 11]."[79]

إن سنة التجديد تشكل مقصدا كليا من مقاصد القرآن الكريم، "وهو ما نلحظه في القرآن فعلا، فعموم ما فيه هو تأسيس للوعي بمحورية التجديد في حركة الحياة، ودعوة للأفراد والمجتمع والأمة إلى العناية القصوى بتوفير شروط تحقيق ذلك، لأنه مقتضى من مقتضيات حركة المدافعة والمداولة الحضارية المهيمنة على الوجود البشري في الأرض."[80]

ويصل الطيب برغوث، "بعد عقود طويلة من القراءة والبحث والدراسة المعمقة، والبحث عن رؤية سننية كلية لتفسير وتدبير حركة التاريخ الحضاري البشري، إلى استخلاص إطار عام لنظرية كلية في فلسفة التاريخ والحضارة، تتلخص في كون حركة التاريخ الحضاري البشري تحكمه باستمرار نظرية أو سنة " **المدافعة والتجديد** " . والموقف الفكري والعملي من معطيات ومقتضيات هذه **المدافعة والتجديد** الناظمة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، هو الذي يحدد طبيعة ومسار وأفق **المداولة الحضارية**، ومداها التاريخي بشكل مستمر لا يتغير."[81]

2. كليات منظومة سنن الوعي التسخيري الشامل

تتكون منظومة سنن الوعي التسخيري الشامل من أربع كليات سننية، نعرّفها باختصار، على النحو الآتي:

1.2. كلية سنن الآفاق: "تزود الإنسان بالمعرفة السننية، المتصلة بكل ما هو مادي من شروط تحقيق خلافته في الأرض."[82]

2.2. كلية سنن الأنفس: "تزود الإنسان بالمعرفة السننية، المتصلة بكل ما هو إنساني ثقافي اجتماعي حضاري، من شروط تحقيق خلافته في الأرض."[83]

3.2. كلية سنن الهداية: "تزود الإنسان بالمعرفة السننية، المتصلة بكل ما هو وحي وهداية إلهية مؤطِّرة ومرشِّدة لحركة الاستخلاف البشري في الأرض."[84]

---

[79] برغوث الطيب، الأطروحة السننية الخلدونية ونظرية المدافعة والتجديد، دار النعمان للطباعة والنشر، المحمدية، الجزائر، 2017، ص 85

[80] برغوث الطيب، مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، ص 102.

[81] برغوث الطيب، الأطروحة السننية الخلدونية ونظرية المدافعة والتجديد، ص 85-86.

[82] برغوث الطيب، نحو أكاديمية وطنية لتنمية المعرفة والثقافة السننية، دار النعمان للطباعة والنشر، المحمدية، الجزائر، 2017م، ص 35.

[83] المرجع نفسه، ص 35.

4.2. كلية سنن التأييد: تزود الإنسان بالمعرفة السننية، المتصلة بالعون والتأييد الإلهي، في كافة مراحل حركة الاستخلاف البشري في الأرض، خاصة عندما يتعلق الأمر بحالة عجز قدراته التسخيرية، المستمدة من الكليات الثلاث السابقة، عن مواجهة التحدي المطروح عليه، فيلجأ إلى استثمار معطيات هذه الكلية السننية التسخيرية، بشروطها اللازمة.[85]

وفي الأخير نشير إلى أننا اكتفينا، بمقتضى موضوع هذه الدراسة، بعرض مختصر للكليات السننية الناظمة لمنظومتي الاستخلاف والتسخير، وهذا لا يعني اهمال أو اغفال الكليات السننية الناظمة للمنظومتين الأخريين: منظومة الوعي الكلي الغائي، ومنظومة الوعي الوقائي الحضاري، لأن منظور السننية الشاملة يقوم على أساس "أن كل فعل إنساني معرفي أو ثقافي أو سلوكي أو اجتماعي، صغير أو كبير، يحتاج بالضرورة، لكي يستكمل دورته الإنجازية الكلية، ويخرج إلى حيز الوجود أصيلا فعالا تكامليا مطرد التأثير، إلى استثمار معطيات من جميع المنظومات السننية الكونية الكلية الأربعة السابقة، وبدون ذلك يخرج فعلا منقوص الأصالة أو الفعالية أو التكاملية أو الاطرادية التاريخية الطويلة المدى."[86]

خاتمة: نتائج وتوصيات

توصلت الدراسة للنتائج التالية:

1-إن الوهن الحضاري أو الأزمة الحضارية التي تعاني منها الأمة الإسلامية ما زالت قائمة رغم الجهود المبذولة للخروج منها، على مدار أزيد من قرنين من الزمن.

2-تنوعت نظرة المفكرين والمصلحين إلى أصل الأزمة، وتبعا لذلك تباينت مناهجهم، فمنهم من عالجها من خلال مقاربات جزئية، ومنهم من سلك سبيل المقاربات التكاملية.

3 -تعتبر المقاربة التكاملية التي تعتمد على كل العوامل والسنن الناظمة للظواهر الثقافية والاجتماعية والحضارية هي الأنسب لفهم وتحليل الحركة الحضارية البشرية في الأرض.

4-إن النهضة الحضارية المتوازنة هي محصلة ثقافة النهضة، التي هي محصلة الثقافة السننية، التي هي محصلة منظور السننية الشاملة.

5-يُعد منظور السننية الشاملة من أفضل المقاربات التكاملية التي عرفها الفكر الإسلامي المعاصر، بالنظر إلى منظوماته الأربع الكبرى وكلياتها السننية الناظمة لها، القادرة على تقديم مشروع متكامل لنهضة حضارية متوازنة.

كما توصي هذه الدراسة بما يلي:

---

[84] المرجع نفسه، ص 35.

[85] برغوث الطيب، مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، ص 118-بتصرف.

[86] برغوث الطيب، سؤال النهضة والحاجة إلى منظور السننية الشاملة، ص 276.

1-العمل على تأليف مقرر في منظور السننية الشاملة، يُدرّس في جميع التخصصات في السنوات الجامعية الأولى، "لأنه يساعد على بناء الخريطة الذهنية للطالب، ويزيل كثيرا من الغموض والارتباك والتنافرية من ذهنه وحياته."[87]

2-السعي إلى "تمكين النخب الفكرية والسياسية والاجتماعية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، من الانفتاح على منظور السننية الشاملة، والاستفادة منه في منح حركة النهضة الحضارية الإسلامية المعاصرة شروطها الحقيقية الشاملة المتوازنة."[88]

قائمة المصادروالمراجع

1. برغوث الطيب، الأطروحة السننية الخلدونية ونظرية المدافعة والتجديد، دار النعمان للطباعة والنشر، المحمدية، الجزائر، ط1، 2017م.
2. برغوث الطيب، السننية الشاملة، مركز الشهود الحضاري، إسطنبول-تركيا، ط1، 1443ه/ 2021م،
3. برغوث الطيب، الفعالية الحضارية والثقافة السننية، دار النعمان للطباعة والنشر، المحمدية، الجزائر، ط4، 2019م.
4. برغوث الطيب، سؤال النهضة والحاجة إلى منظور السننية الشاملة، دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، الدوحة، قطر، ط1، 2021م.
5. برغوث الطيب، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية المدافعة والتجديد، دار النعمان للطباعة والنشر، المحمدية، الجزائر، ط 1، 2019 م.
6. برغوث الطيب، مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، دار النعمان للطباعة والنشر، المحمدية، الجزائر، ط1، 2017م.
7. برغوث الطيب، مقدمة في الأزمة الحضارية والثقافة السننية، دار قرطبة للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر، ط1، 1425ه/2004م.
8. برغوث الطيب، نحو أكاديمية وطنية لتنمية المعرفة والثقافة السننية، دار النعمان للطباعة والنشر، المحمدية، الجزائر، 2017م.
9. بوعافية عيسى، ماهية "السننية الشاملة"، سبتمبر 2023، https://www.facebook.com/mountada.aldirassat
10. سالم محمد بهي الدين، ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1420 ه/ 1999 م.
11. سعيد جودت، حتى يغيروا ما بأنفسهم، مؤسسة الإسراء للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط8، 1989م،
12. الصلابي علي محمد، العلامة ابن باديس .. لطائفه التربوية ومنهجه القرآني (2)، مدونات الجزيرة نت، 2018/04/29م

[87] برغوث الطيب، سؤال النهضة والحاجة إلى منظور السننية الشاملة، ص283.

[88] المرجع نفسه، ص 285.

13. طالبي عمار، الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وأثاره، دار كردادة للنشر والتوزيع، بوسعادة، الجزائر، طبعة خاصة، 2013م، مجلد 1، جزء 1.
14. عمارة محمد، شخصيات لها تاريخ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، ط 1، 1429 هـ/2008 م.
15. العوفي سلمى بنت حضيض، الثقافة السننية في الفكر الإسلامي المعاصر-دراسة تأصيلية تطبيقية، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، 1442هـ/2021م.
16. كنعان أحمد محمد، أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، كتاب الأمة، العدد 26، الدوحة، قطر، 1411هـ.
17. ابن لحسن بدران، مالك بن نبي مستأنف الخلدونية وفيلسوف الحضارة، دار آرام للنشر والترجمة، 1444هـ/2022م
18. لعريبي عبدالله، مالك بن نبي .. المفكر الرسالي، الملتقى الدولي الموسوم "فكر مالك بن نبي.. بين مظاهر الجمود وآليات التفعيل"، يومي 28 و29 نوفمبر 2017، جامعة العربي بن مهيدي بأم البواقي، الجزائر.
19. لعريبي عبدالله، منهج مالك بن نبي في دراسة مشكلات الحضارة وعلاقته بمنظور السننية الشاملة، الملتقى الوطني الأول حول الدراسات السننية في الفكر الإسلامي المعاصر، جامعة الحاج لخضر باتنة 1، يوم 22 نوفمبر 2023م
20. ملال يونس، شيء عن الثقافة السننية، موقع جمعية الاحياء والتجديد، 15 مارس 2023م، https://ahya.ly
21. ابن نبي مالك، القضايا الكبرى، دار الوعي للنشر والتوزيع، رويبة، الجزائر، ط1، 1434هـ/2013م.
22. ابن نبي مالك، شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الوعي للنشر والتوزيع، رويبة، الجزائر، ط1، 1434هـ/2013م.
23. ابن نبي مالك، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الوعي للنشر والتوزيع، رويبة، الجزائر، ط1، 1434هـ/2013م.
24. ابن نبي مالك، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور، دار الوعي للنشر والتوزيع، رويبة، الجزائر، ط1، 1434هـ/2013م.